يبدو ان ماقام به الخليفة سليمان كان جزءاً من سياسة الدولة العسكرية الرامية الى توسيع رقعة الدولة العربية الاسلامية، ومقارعة البيزنطينين بصورة خاصة. يضاف الى ذلك ان سقوط القسطنطينية كان يعني انتشار الاسلام في كل آسيا الصغرى.

ومما شجع العرب على الهجوم ضد البيزنطينين هو ان العاصمة البيزنطينية نفسها كانت تمر حينذاك باضطرابات خطيرة حدثت في دولة البيزنطينين. فبعد مقتل جستنيان الثاني، الذي عاصر عبدالملك والوليد جاء فليبكوس ثم انسطاسيوس الثاني. واخيراً ثيود سيوس الثالث حيث وصف هؤلاء بالضعف والانصراف الى متعهم ومسراتهم، فتعددت الثورات الداخليه (١٩). ولم يتغير الموقف الا بعد ظهور ليو الثالث الايسورى. وفي عهد ليو هذا قام العرب بحصار القسطنطينية.

جاء الخليفة سليمان الى الحكم في وقت بلغ فيه الاستقرار منتهاة، والانتعاش الاقتصادي ذروته. اراد سليمان ان يحقق لنفسه مجداً وهوان يكون له شرف السيطرة على القسطنطينية.

استعد سليمان للحملة استعداداً هائلاً. فجمع لها الجيوش من مختلف الامصار حتى بلغ تعدادها ـــ حسب بعض الروايات ـــ نحواً من مائة وعشرين الفاً، ووضع على رأس هذه الجيوش اخاه مسلمة بن عبدالملك فخرج عام ٩٨ هـ /٧١٦ م ومعه جماعة من فقهاء الشام والعراق متخذاً طريق مرعش. ولم يقتصر الامر على الجيوش البرية، وانما اسهمت القوة البحرية التي كانت تضم سفنا بلغت حوالي ١٨٠٠ سفينة من مصر وبلاد الشام فاتجهت الى بحر مرمرة، واحكمت الحصار البحري على القسطنطينية (٢٠). وتوغل في نفس الوقت مسلمة بجيوشه الكثيفة فعبر الدردنيل وعسكر امام اسوار المدينة، واقام الخليفة في مرج دابق قرب حلب، يستطلع اخبار الحملة ويمدها بما تحتاجه من اشياء ومعلومات. وواقع الامر ان مسيرة الجيش ورحلة الاسطول كانت موفقة ولم يلحق بها اذى يذكر وذلك بسبب

(19) Gibbon, Op. Cit, Vol. 2 , p. 530

(20) Vasiliev, Op. Cit, p. 230,

اراضيها، ولذا قامت هجمة اخرى عام ١٧٠ هـ / ٧٨٦ م وصلت فيها القوات العربية الى افسوس (٢٩). ونتيجة لضعف الامبراطورية اضطرت الامبراطورة ايرين الى عقد صلح مع العرب، وبموجب هذا الصلح كان على الامبراطورة دفع جزية سنوية كبيرة كل عام (٣٠).

اما في البحر فقد احرز العرب انتصارات باهرة على الاسطول البيزنطي. اذ اعد الرشيد هجوماً بحرياً عام ١٨٣ هـ / ٧٩٩ م على جزيرة قبرص (٣١). ومنها الى السواحل الجنوبية لاسيا الصغرى. وقد دارت معارك بحرية حامية بين الاسطولين العربي والبيزنطي انتهت بهزيمة الاسطول البيزنطي واسر قائده (٣٢).

خفت حدة الحرب بين العرب والبيزنطينيين في السنوات الخمس الاخيرة من حكم ايرين، نظراً لقبولها دفع الجزية السنوية للخليفة كما ذكرنا سابقاً. وماكاد نقفور يتولى عرش الامبراطورية عام ١٨٦ هـ / ٨٠٢ م حتى امتنع عن دفع الجزية التي كانت مقررة منذ عهد الامبراطورة ايرين. ويسجل لنا الطبرى بداية هذه الاحداث وموجزها ان نقفور كتب الى هارون الرشيد يقول « من نقفور ملك الروم الى هارون ملك العرب، اما بعد، فان الملكة التي كانت قبلي اقامتك مقام الرخ واقامت نفسها مقام البيدق، فحملت اليك من اموالها ماكنت حقيقا بحمل امثالها اليها، ولكن ذاك ضعف النساء وحمقهن، فاذا قرأت كتابي فاردد ماحصل قبلك من اموالها، وافتد نفسك بما يقع من المصادرة لك، والا فالسيف بيننا وبينك ». وعندما تسلم هارون هذا الخطاب تملكه الغضب وارسل الى نقفور يقول حسب رواية الطبري ايضاً « بسم الله الرحمن الرحيم. من هارون امير المؤمنين الى نقفور كلب الروم قد قرأت كتابك... والجواب ماتراه دون ان تسمعه والسلام » (٣٣).

---

(٢٩) البلاذرى ـــ المصدر نفسه ـــ ص ١٧٤، ص ١٧٥

(30) Baynes and Moss, Op. Cit, p. 311

(٣١) يشير البلاذرى ان غزو العرب لقبرص ماهو الا لحماية اهلها من ظلم الروم وتعسفهم. انظر ـــ البلاذرى ـــ المصدر السابق ـــ ص ١٦١

(32) Vasiliev, Op. Cit, p. 277, Bayness and Moss, Op. Cit, p. 311

(٣٣) الطبرى ـــ ج ٣ ـــ ص ٦٩٥ حوادث عام ١٨٧ هـ / ٨٠٢ م

ثم عاود قسطنطين الهجوم على الاقاليم الشمالية لاعالي الفرات بما فيها ارمينية والجزيرة واستطاع الاستيلاء على ملطية عام ١٣٥ هـ / ٧٥٢ م وفعل بأسراها مثلما فعل بأهل مرعش (٢٦).

وما ان استعادت الدولة العربية في عهد العباسيين قوتها وثباتها وذلك بفرض سيطرتها على البلاد والقضاء على جميع الفتن والمعارضة الداخلية حتى بدأت بشن الهجمات المضاده ضد البيزنطينين. ولم يعد موقف الدولة موقف الدفاع او مناوشات على الحدود، بل اتسم بطابع الهجوم في عمق الاراضي البيزنطينية، واصبحت الحرب سجالاً بين الطرفين. في الوقت الذي اخذت فيه السياسة الخارجية للامبراطورية البيزنطينية في التدهور خلال العشرين سنة عقب وفاة الامبراطور قسطنطين.

ورغم ان الهجمات العربية لم يكن لها طابع الامال الكبار السابقة في الاستيلاء على القسطنطينية وانها كانت معارك دورية تتكرر كل سنة تقريباً ويتبعها تبادل الاسرى، فقد شكلت ازعاجاً كبيراً للامبراطورية. ولحسن حظ العرب انه كان يجلس على العرش الامبراطورى امرأة ليست على دراية كافية بالسياسة العربية. وعلى اية حال فان الخليفة المهدى وجد الفرصة لتوجيه قواته عام ١٦٥ هـ / ٧٨١ م تحت قيادة ابنه هارون الرشيد الذي توغل داخل آسيا الصغرى غرباً حتى وصل الى مدينة كريزبوليس Chrysopolis التي تواجه القسطنطينية (٢٧). وتحتم على الامبراطورة ايرين ان تعقد الصلح مع العرب. وبمقتضاها التزمت بان تدفع للخليفة العباسي جزية سنوية قدرها سبعون الف دينار وان تستمر الهدنة ثلاث سنين (٢٨). غير ان السلام لم يستمر طويلاً، فنشب القتال من جديد بين الطرفين، وذلك لان البيزنطينين لم يحترموا الهدنة التي عقدوها مع العرب.

ولكي يؤكد هارون الرشيد — الذي تولى السلطة في بغداد عام ١٧٠ هـ / ٧٨٦ م سلطانه على الامبراطورية كان يقوم بشن الغارات المستمرة على

---

(٢٦) البلاذرى — المصدر السابق — ص ١٩٠

والبلاذرى — المصدر نفسه — ص ١٧٢

(27) Gibbon, Op. Cit, Vol 2 , p. 817

(28) Vasiliev, Op. Cit, p. 238

قيـام الامبراطور ليو الثالث بسحب جميع قواتـه البحرية والبرية بهدف حماية العاصمـة (٢١).

اما عن موقف الامبراطور ليو الثالث فكان عليه ان يتصرف لانقاذ العاصمة من السقوط. فقد اتخذ بعض الاجراءات السريعة منها غلق مدخل البسفور بسلسة ضخمة من الحديد، وشحن اسوار العاصمة بالعساكر الذين بذلوا كل الجهود لمنع العرب من اقتحام الاسوار. اضف الى ذلك اتصاله السريع بخان الخزر الذي كان هو الاخر على عداء مع العرب. وجمعت بين خان الخزر وليو صداقة سريعة كللت بزواج سياسي سريع من ابنة قسطنطين — الذي اصبح امبراطورا فيما بعد — كما استنجد بزعيم البلغار ترفل Trevel لامداده بقوة من عنده بعد مفاوضات عاجلة جرت بينهما.

ورغم هذه الاستعدادات من جانب ليو فيبدو الموقف كان لصالح العرب المسلمين في اول الامر بفضل قيادتهم الموحدة وحماسهم الديني تحت راية العقيدة والايمان. فكانت وطأة الحصار شديدة على البيزنطينين حتى وصف ذلك العام « بعام المحنة ». ولكن الحصار طال حتى حلول الشتاء، وعمل مسلمة بيوتاً من الخشب امضى بها الشتاء، غير ان البرد بلغ من القسوة والشدة ما أعاق احكام الحصار المضروب، كما تعرض الاسطول لعواصف عاتية حطمت جزءاً كبيراً منه، وفعلت النار الاغريقية فعلها ولم تبق الاعلى قليل من سفنه (٢٢).

وتحمل العرب الكثير من المشاق نتيجة الظروف الطبيعية السيئة، وبشلل قوتهم البحرية، وفقدان المؤن بعد ان طال امد الحصار فخسروا بسبب ذلك عدداً كبيراً من رجالهم (٢٣).

ورغم هذه الظروف الصعبة، فأن مسلمة ورفاقه صبروا على القتال وابدو كثيراً من ضروب الشجاعة والتضحية دون ان يستولي اليأس عليهم او يفكروا بالتراجع، وظلوا على هذه الحالة حتى موت الخليفة سليمان، واستلام عمر بن

---

(21) Oman, Op. Cit, p. 185

(22) Vasiliev, Op. Cit, p. 235,238

(23) Oman, Op. Cit, p. 186

عبدالعزيز (رض) زمام الخلافة عام ٩٩ هـ / ٧١٧م فأصدر اوامره الى مسلمة بالانسحاب ، وذلك بعدما رأى عدم جدوى متابعة القتال .

والواقع ان الخليفة الجديد عمر بن عبدالعزيز كان مهتماً بنظم الدولة وشؤونها الداخلية اكثر من اهتمامه بتجنيد الجيوش ودفعها الى ميدان الفتوح . ولكن هذا لايعني ان عمر قد اوقف كل نشاط عسكري للدولة ، فقد ظلت بعض العمليات العسكرية مستمرة . كما بقيت فكرة فتح القسطنطينية الهدف الذي ينشده العرب المسلمون (٢٤) . فمنذ عام ١٠٨ هـ / ٧٢٦ م درجوا على ان يغيروا سنوياً على آسيا الصغرى في محاولة لاسقاط القسطنطينية . ففي عام ٧٣٩ م توغل العرب في الاراضي البيزنطينية حتى وصلوا الى مدينة أكروينون Acroinon والتي تعرف في الوقت الحاضر (أفيون ـــ قراحصار) والقريبة من عمورية بقيادة عبدالله البطال .

ومع بدايات حكم الامبراطور قسطنطين الخامس كانت السياسة العربية تجاه الامبراطورية قد تغيرت الى حدما . فقد خفت ضرباتهم وذلك بسبب الفتن الداخلية التي وقعت اواخر عهد الدولة الاموية ، والتي ادت في عام ١٣٢ هـ / ٧٥٠ م الى سقوط الدولة الاموية وقيام الدولة العباسية ، وانتقال عاصمة الخلافة من دمشق الى بغداد .

استغل الامبراطور قسطنطين تلك الظروف فقام بالهجوم عام ١٢٩ هـ / ٧٤٦ م على شمال الشام واستولى على مرعش موطن ابائه واجداده . وطبقاً للسياسة التقليدية للامبراطورية البيزنطينية ، قام الامبراطور بنقل بعض السكان من العرب وهم الاسرى الذين وقعوا في قبضة قواته الى ولاية تراقيا .

ورغم ماكانت تعانيه الدولة العربية من ضعف نسبي فانها اعدت حملة بحرية عام ١٣٠ هـ / ٧٤٧م خرجت من ميناء الاسكندرية في مصر للسيطرة على قبرص مفتاح الطريق للعاصمة البيزنطينية . وفعلاً تم انزال بعض القوات البحرية العربية هناك ، الا ان قائد الاسطول البيزنطي تمكن من ايقاف هجومهم وذلك بقطع طرق الامداد والاتصال مع قواعدهم في مصر وبلاد الشام ، مما ادى الى فشل تلك الحملة (٢٥) .